الثورة
الخميس 2 ذو الحجه 1433هـ 18 أكتوبر 2012م العدد (17501)

مصري في اليمن ونجوت بأعجوبة

الأهرام ؟ وماذا عن شكل المحاكمة..؟!

– المحاكمة كانت عسكرية، ولم تكن مدنية.. فكانت لجنة المحاكمة مشكلة من القوات العسكرية المصرية، لأنني في أرض المعركة وفي ظروف وجود القوات المسلحة، واعتبروا الخبر أشبه بالخيانة، وجعلوا العملية كبيرة جداً.. وكلها بهدف أن لا تصل حقيقة ما يجري في ساحات المعركة إلى القاهرة.. أما طريقة إيصال الخبر فكانت هي الأعجوبة التي أنجتني بعد أن تقطعت بي السبل والأوصال عن القاهرة وعن الأهرام، وصرت عاجزاً عن أي تصرف من شأنه إنقاذي أو تأجيل المحاكمة ريثما يأتي حل ما ، ومن حسن الحظ أن أحد الضباط المصريين المتعاونين معي كان مستلماً أو مناوباً في تلك الليلة التي سبقت المحاكمة بـ(٤٨) ساعة، فقال لي: أنت من حقك القانوني أن تطلب صديق محامي، وإذا رُفِضَ طلبك ستصبح المحكمة غير شرعية، وكان محامي الأهرام حينها جمال العطيفي، فطلبت أن يكون هو المحامي، وكان معنى هذا أنهم ضروري سيبلغون الأهرام، أنهم يريدون العطيفي محامياً لي في صنعاء في المحاكمة العسكرية، وبهذه الطريقة عرفت الأهرام وتم إبلاغ محمد حسنين هيكل الذي بدوره أبلغ عبدالناصر فوجه قائد القوات المصرية بإيقاف المحاكمة وإرسالي إلى القاهرة، فاستدعاني القائد العسكري وقال لي أمام الجميع أنه سيتم ترحيلك غداً على الطائرة «انتنوف» وستحاكم في مصر، وكان هذا التهديد من باب ستر ماء الوجه، وأتذكر أنني لما أفرج عني، ذهبت إلى التحرير في صنعاء ، وكان في ثمة كشك اتصالات خارجية في ميدان التحرير، وكان فيه شخصية يمنية تدعى «محمود» وهو الذي كان يقود عملية التواصل، فقد استدعاني وقال لي.. تعال هذا هيكل يريدك والأهرام تسأل عنك، فكلمني هيكل أنه أنت ستعود بكرة وما في أي محاكمة، وبعد المشادة بيني وبين القائد العسكري، تم ترحيلي إلى القاهرة وكان هناك طائرتان تأتيان يومياً من وإلى القاهرة..طائرة «انتنوف» ، كانت تحمل الأفراد والجنود ولم تكن مريحة، بل عبارة عن دكتين حديديتين، دون مقاعد، ويعاني فوقها الجنود من البرودة والثلج ، لأنها عسكرية ، وأخرى اسمها «ديسي» كانت تحمل الضباط، وهي طائرة مدنية مريحة بمقاعد مبطنة ، ولأن القائد العسكري يريد التشفي بي وجه بأن أُنزل على الطائرة «انتنوف» فقلت له: لا.. أنا لست عسكرياً عندك، فحصلت مشادة. وذهبت إلى القاهرة على متن الطائرة «ديسي».

● بعد ذلك كيف عدت إلى اليمن؟ ولماذا أصررت على العودة إلى اليمن؟

– عدت إلى اليمن رغم أن هيكل قال لي لا داعي لرجوعك اليمن فالقائد العسكري سيترصدك، وغيرها، وكنت مُصراً على العودة إلى اليمن ، وقلت له: إذا كان في شيء اسمه احترام للصحافة، وإذا كنت مقتنعاً بالمهنية وممارسة العمل الصحفي في قضية كهذه فعودتي إلى اليمن جزء هام من استرداد كرامتي، فأنا أوذيت وعُذبت في السجن الحربي ، حيث ظلوا يضربونني وأنا أقاومهم، حتى أغمي عليَّ، فكنت أشعر أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن أستعيد به كرامتي ، أني أرجع إلى اليمن، وبالفعل رجعت في طائرة خاصة.. وفي هذه الفترة بالذات كانت معركة تحرير الجنوب على أشدها.. وكان هناك تصوران: تصور أن الجبهة القومية هي التي سوف تنتصر، وتصور المصريين أن عبدالله الاصنج هو الذي سينتصر، وكان لديَّ معرفة عميقة بما يجري في الجنوب لأني طفته كله راجلاً..وأتذكر أنني مشيت من جبل «ظلاع» في البيضاء، إلى «دثينة»، وجبل «ظلاع»، هو أول منطقة باتجاه الجنوب، توصل من خلاله إلى «سيلة كلد» وهي المدخل إلى الجنوب اليمني، وفيها إمارة «الشقّي»، وهي جزء من إمارة « الفضلي» ،واوصلنا السير من «سيلة كلد» أياما وليالي باتجاه عدن وكان معي محمد علي هيثم وعلي ناصر محمد، وكانوا هذه الفترة يحبسون نبض القبائل لمعرفة إمكانية أن تقوم الجبهة القومية بمعركة مسلحة ضد الاحتلال، وكذلك لتوزيع السلاح على القبائل وتشكيل جيش تحرير، وكانت بداية لعملية صلاح الدين لتحرير الجنوب وبما يسهم في تخفيف الضغط على القوات المصرية المحاصرة في المحور الشرقي والحرب مع الملكيين في المحور الشمالي.

واحدية الثورة

● في هذا الإطار بالذات كيف تنظر إلى مسألة واحدية الهدف والفعل الثوري في المحاور الجنوبية والشرقية والشمالية؟

– تجدر الإشارة إلى أن واحدية الهدف في حرب التحرير وحرب الجمهوريين ضدالملكيين في المحور الشرقي والشمالي تتجسد في أن الهدف الأسمى هو وحدة الأراضي اليمنية، فكانت الوحدة أمنية لكل يمني.. وبناءً على هذا الهدف تم فتح جبهة صلاح الدين لتحرير الجنوب، لتخفيف الضغط على القوات الجمهورية في الشمال خصوصاً والمستعمر يدعم الفلول الملكية..

● ماذا عن حيثيات تكوين جبهة صلاح الدين كتكتيك عسكري ، ومتى كان هذا بالتحديد قبل ١٤ أكتوبر ٦٣ أم بعد ؟

– لا لا.. ثورة أكتوبر كانت ما تزال بعيدة جداً، فقد كان هذا التكتيك قائماً قبل ثورة(١٤) أكتوبر، حيث تم فتح جبهة صلاح الدين بتخطيط ودعم من عبد الناصر في إطار الدور المصري في اليمن دفاعاً عن النظام الجمهوري وحرب تحرير عدن من المستعمر، وكان مقرها تعز، قامت حيثيات نشوئها على أهداف إرباك المستعمر وقطع الإمدادات التي تصل الملكيين بقيادة الغادر من إمارة بيحان وهما السببان اللذان كانا وراء ما واجهته القوات المصرية من معارك قاسية وحصار في المحور الشرقي.. وأتذكر أن محمد علي هيثم وعلي ناصر محمد ، كانا من قبيلة دثينة وبرأسان جمعية تعاونية من أهالي الأقاليم المختلفة فكانت هذه الجمعية مع جبهة صلاح الدين أشبه بالنواة التي تفتقت ونمت منها الجبهة القومية..

بيحان مربط الفرس

● لماذا بيحان بالذات؟ وماذا عن دور الجبهة القومية في تلك الفترة؟

– موقع بيحان كان يسمح بتواصل جسور الدعم للملكيين من السعودية والمستعمر البريطاني، كما ذكرت لك سابقاً، وكان شريف بيحان يتعهد بإيصال أي دعم خارجي للملكيين ، وكان يمول قوات الغادر في المحور الشرقي.. وإشارة إلى تكوين الحركة القومية أو الجبهة القومية فقد بدأت في هذا الوقت تتشكل من مجموعات تعاونية من الأندية الاجتماعية والسياسية الموجودة في المحافظات الجنوبية.. وكان عبدالله الاصنج يشكل حزب العمل، الذي كان يعمل من داخل مدينة عدن نفسها ،وكان الطرفان يقاوما ناالإنجليز، وكانت التوقعات لدى المصريين أن الاصنج لأنه الأقرب من العاصمة هو الذي سيستولي على العاصمة..لكن قليلا من ناس الجنوب أو ممن دخلوا الجنوب وعرفوا قبائله اليمنية–

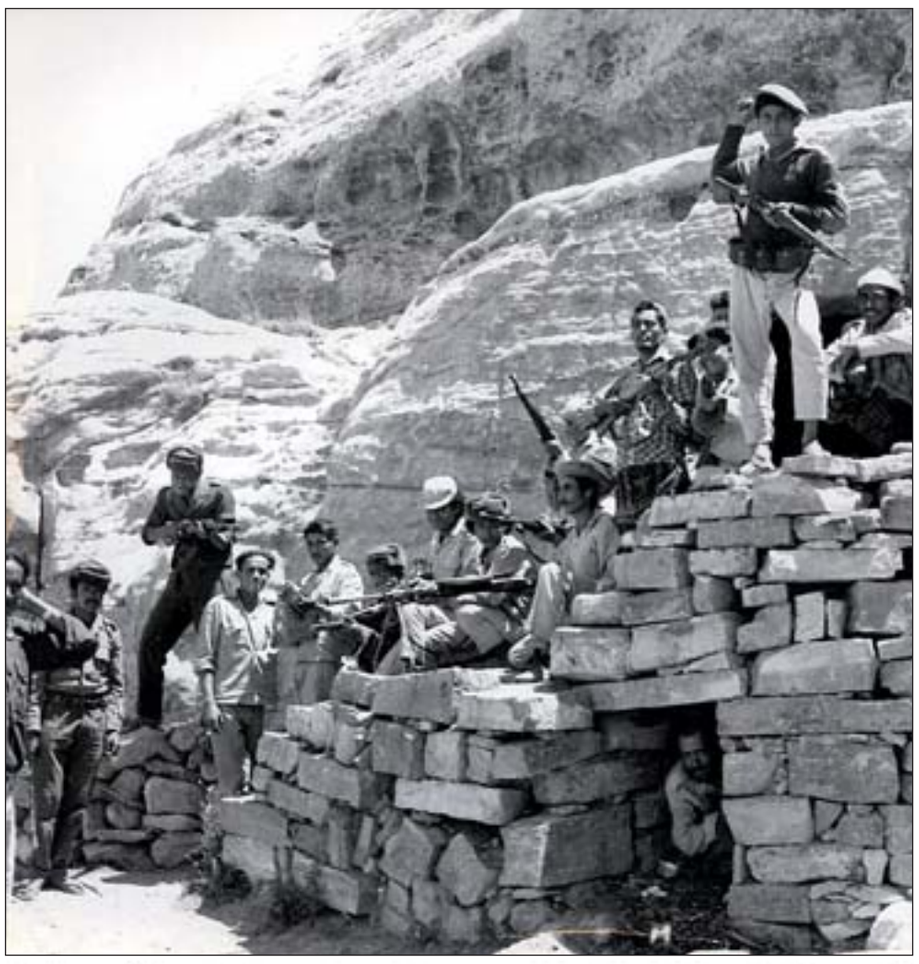

وأنا منهم – كانوا على معرفة بأن الجبهة القومية لها جذور أوسع في داخل اليمن، وأنها استطاعت أن تتوصل إلى علاقات قوية مع مجموعة من القبائل، وكانت متمركزة بقوة في «الضالع»، وفي «دثينة»وفي جبل «وجر» الذي أمضيت فيه (١٥) يوماً، وهو من أوسع الجبال وأكبرها في منطقة دثينة وكان لها وجود في «يافع العليا» و«السفلى»، كل هذه المناطق والإمارات مررنا بها مشياً على الأقدام، وأحياناً كنا نستأجر جمالاً ورغم الوضع الذي كان يفرض العزلة على تلك الجبال والصحارى، إلا أن الأخبار كما تعرف كانت تتطاير عبر تلك المناطق الصعبة ، كما تتطاير اليوم من رويترز عبر الفضاء..

مطاردة قاسية

● وكيف اكتشف البريطانيون أنك مصري وأنك على مشارف عدن؟

–كانت الاستخبارات البريطانية قوية ومنتشرة.. وكنت مدعياً أنني يمني. وفجأة كشوفني القبائل بأني مصري، وكان هيثم قد أخبر الناس أنني دكتور «طبيب» جئت على أساس معالجة المرضى أو الجرحى، ولا أنسى رغبة القبائل وإقبالهم وحاجتهم للرعاية الطبية، فمعنى أنك طبيب ستقابل الآلاف لتكشف عليهم وتعالجهم ، ومعظمهم ليست لديه مشكلة.. وأتذكر أن البريطانيين عندما عرفوا – عبر عيونهم المنتشرة في خارج عدن – كنا في منطقة مفتوحة وهي أبين وطاردنا الطيران البريطاني مطاردة قاسية واختفينا في حقول الذرة.. ، ووصلنا إلى منطقة (دثينة)التي كان يطلق عليها حينها جمهورية (دثينة) ربما لأن معظم رموز الجبهة القومية تنتمي لها وكانوا على حماس شديد وتواصل مستمر مع ثوار سبتمبر في شمال اليمن ، وتوقفنا خارج المدينة في بيت الحسني إلى أن بعثوا لنا رسلاً من بيت محمد علي هيثم وعلي ناصر محمد لنقضي ليلتنا هناك في ضيافتهم، وقدموا لنا أكلات شعبية أتذكر منها العصيد.. وفي الصباح قبل طلوع الفجر، دخلنا جبل «وجر» على أساس أننا سنبقى فيه إلى أن نذهب بالسيارة إلى عدن ، وكان معنا في هذا الجبل كثير من المقاومين القوميين الذين أصبح لهم صيت ، ك«محمد علي هيثم ، وعلي ناصر محمد ، وعلي عنتر ، وعلي سالم البيض ، وقحطان الشعبي ، وكثير من الاسماء»،وبعدها ذهبت إلى عدن على متن سيارة ، ولكن لم ادخل عدن المدينة بقيت في بيت سالم باسندوة –والد رئيس وزراء حكومة الوفاق–ويقع البيت «بين لحج وعدن» حيث أقمت هناك ثلاثة أيام، حتى تم تدبير مسألة الإقامة لدى أحد التجار في كريتر في بيت يطل على السجن، وكان من استضافني هو شاب رائع جداً من التجار المعروفين ، أقمت معه في البيت ، وكان قد أرسل زوجته إلى أهلها نظراً لتوتر الظروف ، فكنا نستقبل الناس الذين يسيرون في درب الكفاح يومياً ،وكل مساء ، إلى أن اكتشف البريطانيون أني موجود فتم تهريبي مرة ثانية، ورجعت إلى بيت سالم باسندوه حتى عدت إلى صنعاء.. وفي هذه الفترة بالذات كان هناك نزاع بين المصريين حول الأحداث التي تتواتر في الجنوب اليمني ، أيهما يمكن يستولي على السلطة، وكنت مطرود من اليمن ومن القوات المصرية في اليمن، حتى أن قائد الجيش المصري كتب مذكرة بأن أُمنع من الاقتراب من أي معسكرات مصرية، وكنت زعلاناً جداً لأني خدمت الثورة اليمنية، وخدمت العملية المصرية الموجودة في اليمن، ولأنني كنت محايداً غضب القادة المصريون مني، وخصوصاً وأنا كنت على علاقة جيدة بجميع القوى..

وكان بيني وهيكل تحد صارخ فيما يتعلق بعملي في اليمن، وقلت له: لا تكلمني عن كرامة صحافة وحرية تعبير.. الكرامة الحقيقية أن تعيدني إلى اليمن.. فجاء في أحد الأيام وأخبرني أن المشير عامر والملك سعود مسافر إلى اليمن ، مضيفاً:(وأنا سأسافر معه على طائرة واحدة ، فعليك أن تجهز نفسك يمكن أن تكون معنا، وفعلاً سافرنا معاً.. وكان الملك مسعود قد انشق عن الأسرة وعبدالناصر حب يعمل به دعاية فذهب به إلى القوات المسلحة في اليمن وعقد مؤتمراً صحفياً فيها وكان اللواء علي عبدالخبير لا يزال قائد القوات المصرية في اليمن ، وهو الذي اختلفت معه، فلما رآني في مطار صنعاء مع هيكل، مُني بصدمة رهيبة جداً، وهيكل يحدثه بخيلاء وبقوة: «هذا الذي كنت عاوز تُخلص عليه.. ليه ازّاي تخلص عليه يا سيادة اللواء».. فكانت ليلة عصيبة على الخبير قائد القوات المصرية بصنعاء، وأنا أشعر بزهو كبير جداً أنني استرديت كرامتي بعد ما حصل لي من تعذيب وإهانة.. وكان المشير عبدالحكيم معنا على الطيارة، وطلب مني هيكل أن أقول روايتي لعامر حول من هو الذي يمكن أن يكسب قضية الصراع على السلطة في الجنوب.. فقلت له بما أعتقده فسألني: أصدقاؤك؟ تعرف من منهم؟.. أجبته أعرف محمد علي هيثم وعلي ناصر محمد، وعلي سالم البيض، محمد قحطان الشعبي وشخصاً آخر من الضالع– لا أتذكره الآن هو مذكور في كتابي ثورة في الجزيرة– كان قصير القامة وذكياً وخطيراً كان يقرب لمحمد قحطان الشعبي، وغيرهم من رموز الجبهة القومية، التي كنت أرى فيها علامات النجاح، وهكذا قلت للمشير عامر، وأضفت: إن الجبهة القومية لها جذور والإنجليز ربما نكاية بالقوى الأخرى والوضع بأسره، سيسلموا الجبهة القومية.. وهذا ما حدث به عامر..

وثائق هامة

● ميدانياً كيف بدأت تتحقق معطيات ما أشرت إليه في حديثك للمشير عامر؟ وماذا عن عودتك إلى عدن قبل رحيل المستعمر؟

– أذكر جيداً أن بيحان هي أول من سقطت من يد الإنجليز، من المناطق التي كانت بريطانيا تفرض سيادتها عليها، أو وصايتها، وكان محمد علي هيثم «أحد رموز الجبهة القومية» أول من تولى هذه الإمارة، وأنا زرته في بيحان، ورأيت كمية كبيرة من الوثائق وجزءا كبيراً من الوثائق عند هيثم، وجزءا عندي وأظن أنه محفوظ في الأهرام..

● بماذا تتعلق هذه الوثائق..؟

– كان جزء من هذه الوثائق التي اطلعت عليها يحكي محاضر اجتماعات قيادة بيحان والرسائل التي كان يبعثها شريف (بيحان) إلى بعض شيوخ القبائل اليمنية الذين كان بعضهم مجهرين والبعض الآخر ملكيين، وجزء كبير من البعضين يلعبون على الوجهين، والأغرب أن شيوخا معروفين كانوا في الصف الجمهوري، وفي مناصب قيادية، وكانوا يستلمون مبالغ خيالية من الملكيين أثناء الحرب، وهو ما كشفته الوثائق في (بيحان) بعد سقوطها في يد الجبهة القومية وكان الدعم للملكيين يأتي من السعودية وبريطانيا ودعم الجمهورية يأتي من الجانب المصري..

● بعد سقوط بيحان وحدوث متوالية الأحداث التي شهدتها الأيام الأخيرة للاستعمار، كيف تعاطيت مع الأحداث كصحفي محارب في أرض المعركة..؟

– وحين بعد فترة سقوط بيحان بدأت أتحرك علناً ، وعلى أساس أن المستعمر راحل ، وأتذكر أني نزلت في لوكندة جميلة في خور مكسر وكان فيها حركة وأجواء يكتنفها الغموض، وترقب وحذر، فالثوار لم يمسكوا المدينة بعد، فكان الوضع أشبه بالفوضى وفجأة اعتلقت من قبل قوات الانجليز ، وتعاملوا معي معاملة غريبة جداً وبعد اعتقالي ، ذهبوا بي إلى قائد مساعد القوات كان اسمه «مستر اسود» كان ضابط العلاقة العامة، في قوات الاحتلال فقال لي: «ما الذي جعلك متخفياً في عملك؟ ولماذا لم تطلب منا فيزة مفتوحة؟ سنعطيها لك، والأمر ما كان يتطلب هذه المغامرة..فقط نحن نريد نشوفك».. وكانوا يتابعون التقارير الصحفية التي كنت أكتبها، فقد كتبت في تلك الفترة حوالي (١٧) تقريراً مهماً عن اليمن في تلك الفترة ..وقال لي أيضاً: «أنا أدعوك لأن تحضر غداً لتغطية عملية الانسحاب الأخيرة من خور مسكر، وفعلاً حضرت، فقد أرسلوا ليس عربية إلى المكان الذي أنزلوني فيه، وشاهدناهم يشدون الرحال من خور مكسر، كما «فرجونا» على إحدى حاملات الجنود وهي تستعد لنقل آخر الجنود البريطانيين من عدن.

● بعد خروج الإنجليز، كيف باتت الأوضاع في عدن؟

– كانت حرب التحرير التي تزامنت وحرب ترسيخ النظام الجمهوري، على مدى مراحلها، تؤكد أن الوحدة حلم قائم في السلم والحرب، وكان الإخوة في اليسار بعدن تصرفوا تصرفات خاطئة في الجنوب، والجناح المتشدد استولى على السلطة لتبدأ البلاد متوالية جديدة من الصراع، مما أجل حلم تحقيق الوحدة.. وهذا ما عاشته عدن بعد خروج المستعمر..

حصار السبعين وعامل الحسم

● بعد عودتك إلى صنعاء.. ماذا عن أحداث حصار السبعين؟

– كل الذي أتذكره من حصار السبعين أننا كنا في المدينة، وكنا نضرب كل يوم بـ(الهوزر) ضرباً قاسياً جداً ، والإمدادات مقطوعة، والمدينة مغلقة، القتلى يصلون باستمرار، وفي الليل يأتون إلى التحرير مجموعة من الشباب المتحمس للثورة، الذين دافعوا عن صنعاء باستماتة ، وكانوا كل ليلة يأتون برؤوس ناس من الذين يحاصرون صنعاء، ويعلقوها في التحرير ، وكانت الرؤوس تصل إلى ثلاثين رأساً في الليلة الواحدة، واستمرت صنعاء على هذا الحال، إلى أن حصلت المعركة الفاصلة التي حدثت على طريق الحديدة، في منطقة النعامي» .. وكنت حاضراً في هذه المعركة.

● ما هو عامل الحسم في هذه المعركة المفصلية؟

عامل الحرب لم يكن في ضرب المدافع والطائرات أو احتدام القتال، فالكل يعرف طبيعة الحروب التي تحدث في القبائل اليمنية، فطريقة الحرب القبلية تجرى كالتالي: «الحرب مشتعلة في ارض المعركة، والتفاهمات والمفاوضات السفلية مستمرة» ومع هذه الطريقة كان عامل الحسم في نفوس الملكيين هو أن صنعاء صمدت وما سقطت مطلقاً وبدأ المدافعون عن صنعاء يتغلبون على الحصار بإبعاد الملكيين عنها، مما جعلها خارج نطاق ضرب الهوزر.

● في إطار الثورة اليمنية وحصار السبعين، كان عبدالرحمن البيضاني من الشخصيات المثيرة للجدل بما يقوله عن أدواره .. فماذا عن هذه الشخصية؟

عبدالرحمن البيضاني لم يكن له سوى دور عن بُعد، وهو اشتغل مع السلال خلال الأيام الأولى، وفي غير ذلك لم يكن له أي دور حقيقي في الحياة اليمنية، ولم ألمس ذلك، وكل مع معه أنه أصدر مذكرات، يقول فيها أنه كان ضابط اتصال مع السادات فهو كان مقيماً في القاهرة..

● ماذا تتذكر من علاقتك بالسلال ؟

– من أهم ما أتذكره في هذا المقام أن السلال قال أنه سيسافر سوريا ثم العراق وطلب مني الذهاب معه، فقلت له: لا أستطيع كوني صحفيا ومصرياً ، فقال: « ماش أنت يمني من ذمار؟» واسمك هو محمد أحمد المصري، فاتصلت للأهرام، وسألت إذا كان بإمكاني الذهاب معه في زيارته، وفي شخصية صحفي يمني من ذمار فكلمني هيكل وقال لي: «لا تخسر حياتك السوريين يعرفوك ، خصوصاً وأنت كنت مدير مكتب الأهرام بدمشق، وممكن يعرفونك من خلال المواد».. المهم في نهاية المطاف رحت مع السلال كصحفي من مواليد بيت المصري بذمار، لكن السوريين عرفوني، وقالوا لي: «أيه الحركات دي يا مكرم، وأين ذمار؟» .. هو في واحد يمني مصري» فقلت لهم: « اليمن خزان البشر».. بعد ذلك أخذونا إلى موقع عسكري في القناطرة بالجولان.. والسلال خطب خطاباً عاصف بخصوص الدور العربي القومي المصري والسوري والصراع مع إسرائيل.. وبعد ذلك اتجهنا للعراق كان حينها علي السعدي نائب الرئيس العراقي هو من استقبل السلال، وكان السوريون قد سربوا معلومات للعراقيين عني، أنه في صحفي مع السلال اسمه وصفاته .. هو مصري وليس من ذمار من اليمن.. فعلي السعدي مارس علينا رقابة شديدة جداً .. لكن في النهاية لم يكونوا يريدون إزعاج السلال من جانب دبلوماسي، وإنما مضايقات في حدود المعقول.. فأمشي مع أحدهم مثلاً يركلني بكتفه قائلاً بسخرية: «إيه أخبار ذمار؟».

أخيراً

● استمررت في اليمن فترة طويلة، ما هي خلاصة ما خرجت به من معرفة وانطباع عن اليمن واليمنيين؟.. وكذا الدور المصري فيها؟

– خلاصة تجربتي في اليمن أعطتني إدراكاً بطبيعة هذا البلد، وأهله، وبالفعل مجرد رؤيتك للملامح اليمنية، تجد أنها ملامح رهيبة وحياة تؤكد أن اليمن هي خزان البشر، الذي تدفقت منه كل قبائل عالمنا العربي على هجرات متتابعة.

الأمر الآخر، كان واضحاً جداً بالنسبة لي، أن مصر دفعت تكلفة غالية، في اليمن كان يمكن اختصارها فكنت أتصور أن مجموعة من المدربين والمدرسين والزراعيين، والخبراء الفنيين، وكانوا موجودين ويغنون عن وجود القوات، وأن القوات المصرية استدرجت إلى اليمن، بوقوع أول حصار لكتيبة سند في المحور الشرقي .. حيث وصل عدد القوات المصرية نتيجة لهذا الحصار، نحو (١٤٠٠٠٠) مقاتل مصري لكن هذه وجهات نظر تطرح بعد الحادث.

■ كانت الوحدة هدف كل يمني، ولهذا اتحد الجميع في اتجاه نصرة النظام الجمهوري والمشاركة في حرب التحرير على أكثر من جبهة.

■ سافرت من البيضاء ((ضلاع)) إلى ((عدن)) وطردت في أبين بقسوة واختفيت في بيحان هرباً من المستعمر.

■ - سافرت مع السلال إلى سوريا والعراق على أساس أني يمني من بيت المصري بذمار، اكتشفت في دمشق.